

وأهملت في ظلال هذه الحكومات القيم العليا للحياة، فالوطن والحكومة هما الصنمان الجديان اللذان خر الإنسان المتحضر لهما ساجداً، وانضم اليهما المال فأصبح المال، والوطن، والحكومة، أصحاب المكان الأسمى في قلب الرجل المتحضر، وعيها بعد ما صنعها وخلقها بيديه، وبعد أن كان الغرض من الحكومة أن تبطل المضطهاد الناس للناس، وأن تقر العدالة بينهم؛ أصبحت الحكومات أداة ظلم واضطهاد، وما دام في قبضتهم قوة وقنابل لهم الحق في بسط سيادتهم على الدول الأخرى لكسب المغنم المادية والاقتصادية لدولهم، فأصبحت النتيجة أن قوات الحكومات المتزايدة التي كان عليها أن تعمل لخير الأفراد، ذهبت تستخدم في استرقاق الناس وإيقاع الظلم بهم أكثر مما تستخدم لإنقاذهم من الظلم ونشر الحق والعدل بينهم، والاسلام يقلب هذه النظريات الخاطئة، ويضع أساس حكومة عادلة لخير البشر ويضع السلطة الحكومية في أيدي رجال يخافون الله ويخشونه، فإحقاق الحق، وخشية الله سبحانه وتعالى، ورعاية حقوق الناس، أهم الصفات اللازمة للحاكم الذي يتولى أمور الناس، وإن القوة الروحية وحدها هي التي تمكن الإنسان من السيطرة على القوة التي تمده بها السلطة الدنيوية. وبغيرها تكون السلطة الدنيوية في خطر.

ولهذا بلغت الإدارة الحكومية الإسلامية في صدر الإسلام - وهي التي جمعت بين القوة الروحية والدنيوية - حداً من الكمال لم نر مثله في تاريخ الحكومات، وكان رئيس الحكومة يعتبر نفسه مثلاً أولاً أمام الله، وثانياً أمام موكله أو مستأجره - كما عبر أبو العلاء المعري في قوله: "وعدوهم مصالحها وهم أجراؤها"

ولكن ليس معنى ذلك ما فهمه البعض من أن حكومة الإسلام كانت حكومة - ثيوقراطية - أي حكومة دينية، رؤساؤها هم رؤساء الدين، فإن رؤساء الحكومات الإسلامية لم يدر بخلدهم أنهم ممثلو الله في الأرض، ويستدعى بسط تلك الفكرة مقاماً آخر نعرض لها فيه، كما نعرض لتفصيل ما أجملنا عن الخليفة، فالإلى الحديث القلاد إن شاء الله؟